السلم والحرب

-2- مهمة درء حرب عالمية تقع أساسياً على عاتق المعسكر الاشتراكي ومهمة تمزيق شبكة الاستعمار العالمي في البلدان النامية تقع أساسياً على عاتق حركة التحرر الوطني.

لا يقصد بالسلم والتعايش السلمي تجميد الجملة الإنسانية خوفاً من الحرب النووية التي يمكـن جعلها غير حتمية، مهمة استرداد كل الأراضي العربية بما فيها فلسطين المغتصبة تقع أساسياً على عاتق الشعب العربي.

"الحرب "1" امتداد للسياسة بوسائل اخرى" في كل الأطوار الإنسانية التي تسود فيها نظـم الاغتصاب ولا سيما النظام الرأسمالي الاحتكاري. فالمستعمر كـالوحش الكاسـر يـزداد شراسة وعدوانية عندما تسد سبل الافتراس الهينة، فلا يتأخر عندئذ عن ارتكـاب أبـشع الجرائم. وإن الرأسمالية الاحتكارية (التي لا تكون رأسـمالية إذا انتفـى العـدوان مـن طبيعتها) تقيم علاقاتها الاجتماعية والدولية على أساس الاستيلاء على قيم الغير وثرواتـه دون مقابل بكل وسيلة تراها مفيدة لتحقيق أغراضها. فهي لذلك إمـا أن تباشـر الحـرب عندما لا يمكن استمرار طريقها السياسي إلا بها، أو أن تسبب الحـرب عنـدما تتـشبث بمواقفها الظالمة فتسد السبل على الآخرين بحيث لا يجدون إلا الحرب وسيلة لاستخلاص حقوقهم: كثيراً ما تنقض الدول الاستعمارية بعضها على البعض الآخـر عنـدما تـشتبك مصالحها وتعجز عن حلها بالطرق السلمية، كما أن الشعوب المقهورة كثيراً ما تجد نفسها مرغمة على حمل السلاح لاسترداد حقوقها من المستعمرين. ثم إن المستعمر عندما تفلس حيله للوصول إلى أهدافه، لا يجنح للسلم إلا في الحالات التي يجد فيها نفسه عاجزاً عـن شن الحرب، أو التي يعتقد فيها أن خسائره بالحرب تفوق أرباحه منها: جنحت أميركا مثلاً للسلم في الحرب الكورية عندما وجدت أن خسائرها ترتفع بلا توقف.

ولنعد الآن إلى كلمة فرانسوا بيو التي كنا أوردناها فيما سبق من البحث والتي قال عنهـا الكاتب المذكور أنها تشكل "إحدى النقاط الأساسية لاختلاف وجهات النظر" بـين موسـكو وبكين:

" وقد أشار مؤتمر الأحزاب الشيوعية لعام 1960 إلى أنه: إذا كانت الحرب هـي مـسألة الحرب والسلم فقد أصبحت هنالك بعد الآن إمكانية درء الحرب".

كما أشار هذا المؤتمر إلى أنه: لا توجد مهمة أكثر إلحاحاً من النضال في سـبيل الـسلم والتعايش السلمي".

فما معنى هذا الكلام يا ترى، وما هي تلك الحرب التي أصبح بالإمكان درؤها، وما هـو هذا التعايش السلمي الذي سنناضل من أجل تحقيقه؟ من الواضح أنه لم يمر أبداً بمخيلـة

واحد من أولئك المؤتمرين عام 1960 بأن التعايش السلمي هو هدنة أبدية تجمد حول خط ثابت قوى التقدم وقوى الرجعية في كل بلد، وتجمـد الـشعوب المقهـورة والاسـتعمار العدواني في العالم. فهذا الأمر غير واقعي، فهو يسلب الحياة من الجملة الإنسانية التي لن تستجيب بطبيعة الحال لأية هدنة من هذا النوع، بل ستمضي في مسيرتها إلى غاياتها التي لا تنتهي وهي مليئة بالحياة الصاخبة الهادرة.

وفي الواقع نجد المؤتمرين الآنفي الذكر لم يقصدوا تجميد الحياة بل أنهم أشـادوا كثيـراً بقراراتهم الختامية بكل حركات النضال وثورات التحرر ضد الرجعية والاسـتعمار. أمـا الحرب التي يمكن درؤها برأي أولئك المؤتمرين فهي بالدرجة الأولى الحـرب العالميـة النووية. ثم كل حرب عدوانية أخرى يشنها المستعمرون على بلد آمن ينشد الحريـة فـي بناء مستقبله، وذلك حسب ما نستخلصه من جملة الكتابات التقدمية في هـذا الموضـوع. وعندما نعود لنرى التطبيق العلمي لنظرية التعايش السلمي وإمكانية درء الحـرب الآنفـة الذكر نجد أن المعسكر الاشتراكي تمكن مرة بإتباع سياسة ضبط الأعصاب مـن تجنيـب الإنسانية كارثة نووية في أزمة البحر الكاريبي ومن حفظ استقلال كوبا الشوكة الموجعـة في جنب الاستعمار الأميركي.

إلا أننا نجد أيضاً أن المستعمرين الأميركان شددوا من عدوانهم على شعب فيتنام منذ عام 1960 وحتى الآن، كما أنهم أعدوا ونفذوا بالاشتراك مع المستعمرين الإنكليـز والألمـان الغربيين عدواناً على الشعوب العربية بواسطة عميلتهم إسرائيل التي اجتاحت قسماً إضافياً من الأراضي العربية في حرب الستة أيام القريبة.

ويتساءل المرء فيما إذا كانت "إمكانية درء الحرب" الآنفة الذكر تعني بـرأي المـؤتمرين العدوانية التي يشنها المستعمرون هنا وهناك في العالم تقع أساسياً على الشعب العربـي. ومن الاشتراكية. إلا أننا أمام الظاهرتين الآنفتي الذكر، أمام العدوان في الفيتنـام والعـالم العربي، نجد أن مهمة رد المعتدين تقع أساسياً على عاتق الـشعوب التـي يقـع عليهـا العدوان: إن الشعب الفيتنامي مثلاً يتحمل منذ عام 1960 حتى اليوم ببطولة لا مثيل لهـا أعباء مهمة رد المعتدين الأميركان وحلفائهم وعملائهم، كما نرى اليوم أن مهمة اسـترداد الأراضي العربية، كل هذه الأراضي بما فيها فلسطين المغتصبة تقع أساسياً على الـشعب العربي. ومن البديهي أن تقع مهمة درء حرب عالمية نووية على عاتق الدول الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي والصين الـشعبية. وفـي الحـالتين، حالـة رد عـدوان استعماري عن بلد آمن وحالة درء حرب نووية، تهب جميع قوى التقدم في العالم لمؤازرة قوة الصدام الأساسية: الشعب ضحية العدوان أو المعـسكر الاشـتراكي حـارس الـسلم العالمي.

ولنلق نظرة مرة أخرى على الجملة المادية الإنسانية التي تمر الآن في مرحلة تحول إلـى الاشتراكية. فالحركة الأساسية في هذه الجملة هو هذا التحول بالذات، الانتقال الذي ينتهي عمليا بانفصال عدد كاف من المجتمعات عن شبكة الرأسمالية العالميـة والتحـاق هـذه المجتمعات بشبكة الاشتراكية العالمية. فما هو الشرط الأساسي لوقوع هذا التحول يا ترى؟ إنه قبل كل شيء استمرار مرحلتنا الراهنة زمناً كافياً كمرحلة انتقال ليتم فيها التحول بمنع الرجعية العالمية من أن تحقق أبعادها الكامنة في طبيعتها لتسود مرة أخرى بشكل مطلـق العالم كما كانت عليه في الطور السابق لثورة اكتوبر، وذلك بعد أن تتوصل إلى إجهـاض مرحلة الانتقال هذه وطيها في صفحات التاريخ. فما دامت المرحلة سلمية لا بد من أن يقع فيها ذوبان شبكة الرأسمالية العالمية حلقة بعد حلقة، حلقات بعد حلقات الخ.. لا بد مـن أن يستمر التحول إلى أن تصل الشبكة المذكورة إلى الانحلال التام. ومن الواضـح أن هـذه المهمة، مهمة حماية مرحلة الانتقال، تقع على مجموعة حركات التقدم من أقـوى دولـة اشتراكية إلى أضعف حركة نضال في العالم مروراً بحركات التحرر الـوطني ونـضال الطبقات العمالية في البلاد الرأسمالية الخ.. إلا أن القوة الأساسية بين كـل قـوى التقـدم لإنجاز هذه المهمة الخطيرة تبقى ممثلة بالمعسكر الاشـتراكي وفـي طليعتـه الـدولتان العظيمتان: الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية. وهنا يتضح لنا بجلاء المغـزى الحقيقـي للعبارة التي أوردناها أعلاه: "لا توجد مهمة أكثر إلحاحاً من النضال فـي سـبيل الـسلم والتعايش السلمي". فالسلم والتعايش السلمي لا يعنيان في واقعنا الحالي إلا تواجد الشبكتين الأساسيتين: شبكة الرأسمالية العالمية السائرة بطبيعتها ضد خط التاريخ، والتي لا تتوقـف لذلك أبداً عن الانحلال، وشبكة الاشتراكية العالمية السائرة في خط التاريخ وهي لـذلك لا تتوقف عن التكامل والنمو. وهذا يعني بالضبط وجود مرحلة الانتقـال بكـل خواصـها وحركتها العامة الآيلة عندئذ حتماً إلى الاشتراكية المنتصرة عالمياً. فلا يقصد إذن بالـسلم والتعايش السلمي تجميد الجملة الإنسانية والسعي إلى

"1" لينين

منع كل تفاعلاتها خوفاً من وقوع الحرب النووية، الأمر المستحيل في الواقع لأن الحيـاة أشد قوة من كل مسعى من هذا النوع، ولا بد من أن تتغلب على كل من يحاول تجميدها.. ثم ان الحرب النووية ليست حتمية عندما يقف المظلوم مثلاً ليرد عدوان الظالم: إن مقاومة المعتدين بكل الوسائل التي من جملتها الأسلحة لا تزيد في احتمال نشوب الحرب النووية، بل ان هذا الاحتمال يزداد تناقصاً بقدر ما تعم مقاومة الشعوب للعدوان بكل أشكاله. وفـي النتيجة نجد أن العبارة الواردة أعلاه يمكن أن توضع بالشكل التالي دون أن يتغير مغزاها العلمي: "لا توجد مهمة أكثر إلحاحاً منا لنضال في سبيل صيانة مرحلة الانتقـال لتـؤدي

مهمتها التاريخية"، صيانتها من استسلام قوى التقدم لقوى الرجعية، وصيانتها من تـدمير الجملة الإنسانية بحروب نووية. ونجد هنا أن آفاق النشاط الإيجابي، آفاق النضال لقـوى التقدم، تتسع اتساعاً كافياً بين هذين النقيضين: الاستسلام والحرب النووية.

ثم إن إنجاز المهمة الأنفة الذكر، مهمة حماية مرحلة الانتقال لتبقى مرحلة انتقـال تـؤدي بالجملة الإنسانية إلى الاشتراكية، لا يقع على عاتق تحالف بين دولة اسـتعمارية ودولـة اشتراكية كما قال خرشوف: "نحن – الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي – أقوى قطرين في العالم. إذا ما اتحدنا من أجل السلام فلا يمكن أن تنشب الحرب" إنه يقع كما قلنا علـى عاتق تحالف بين الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية مـع مـا يتـوفر لهـاتين الـدولتين الجبارتين من احتياطي هائل من مختلف قوى التقدم في العالم. وعندئذ عندما تنجز هـذه المهمة بشكل مرض، فتحتفظ الجملة الإنسانية بخواصها كجملة تمر بمرحلة تحـول إلـى الاشتراكية، نجد أن السبل تتسع لعمل كل قوة من قوى التقدم لإنجاز مهامها الخاصة بها: حركات التحرر الوطني مثلاً تستمر في تمزيق شبكة الرأسمالية العالمية، البلاد الاشتراكية تمضي في تعزيز اقتصادها وتطوير قواها العسكرية وفي تقديم مساعداتها للدول الناميـة وحركات التقدم، طبقات الكادحين في البلاد الرأسمالية المتقدمة بقيادة طبقات العمال تستمر في هجومها على كل الجبهات الاقتصادية والـسياسية علـى احتكـاريي بلادهـا الـخ.

والخلاصة، إن مهمة حماية مرحلة الانتقال هي في الواقع مهمة حماية الظـروف العامـة اللازمة لقيام كل قوة من قوى التقدم بمهامها التاريخية ولا سيما منها المهمة الأساسية لهذه القوة، لحماية الظروف العامة التي بدأ قيامها بثورة أكتوبر وما زالت منذ ذلـك التـاريخ تتطور بفعل وبتطور كل قوة من قوى التقدم وبنتيجـة التفـسخ المـستمر فـي النظـام الرأسمالي، لحماية الظروف العامة للتحول إلى الاشتراكية.

ولننظر الآن إلى العملية الأساسية في حركة الجملة الإنسانية المارة بمرحلة التحول إلـى الاشتراكية، المرحلة التي قلنا أن مهمة حماية ظروفنا تقع علـى المعـسكر الاشـتراكي مدعوماً بكل قوى التقدم في العالم. فهذه العملية الأساسية هي كما قلنا أكثر من مرة ذوبان شبكة الرأسمالية وتمام شبكة الاشتراكية في ظروف التحول الأنفة الذكر، وهي تتم أساسياً بفعل حركة التحرر الوطني في كل بلد من البلاد النامية. ففي هذا العصر الذي تحـررت فيه سياسياً كل المستعمرات القديمة تقريباً أصبحت عملية التحول إلى الاشتراكية في كـل بلد نام عملية داخلية تخص هذا البلد فلا يستطيع الاستعمار العالمي منعها إلا بالتدخل فـي شؤونه الداخلية بالاعتداء عليه بشكل من أشكال العدوان. الأمر الذي يضع الاستعمار فـي تناقض عام مع الجملة الإنسانية التي من جملة مقوماتهـا الأساسـية الحاليـة الاسـتقلال السياسي للبلاد النامية، يضع الاستعمار في الاتجاه المعاكس لسير التاريخ. أما البلد النامي

ضحية العدوان فإنه عندما يهب للدفاع عن حريته فإنه يكون عندئذ مستنداً إلى الظـروف العامة للجملة الإنسانية ومع خط سير التاريخ. فإذا ما استعد كل شعب من الشعوب النامية لصد كل عدوان محتمل من قبل المستعمرين فإن الصعوبات التي يواجهها هؤلاء تتفـاقم، فهم لا يستطيعون التغلب على مقاومات منظمة ومعدة إعداداً حسناً على دفعات كبيرة مـن أراضي البلاد النامية إلا بدفع أثمان باهظة لعدوانهم، أثمان تزيـد مـن اهتـزاز كيـانهم الاستعماري وتقربه من نهايته المحتومة إلا أن مقاومة الاستعمار وتعميم هذه المقاومـة لا يأتيان بمجرد الكلام وإظهار الإعجاب بهذه المقاومة أو تلك بمجرد إظهار الإعجاب مـثلاً بمقاومة شعب فيتنام البطل، وإنما تأتي بالمبادرة وضرب المثل العملي. ثـم إن الحكمـة مطلوبة للاستعداد من أجل ردع المستعمر وليست مطلوبة بأي حال من الأحوال للتهويـل ولبث الرعب من حرب نووية. ذلك لأنه ليس باستطاعة الأميركان مثلاً ولا بد من المفيـد لهم في هذا النوع من الصراع أن يوزعوا قنابلهم النووية على كل الفئات الوطنيـة التـي تقاومهم والتي لا حصر لعددها في العالم النامي. والبرهان على هـذا الأمـر هـو فـي الاستراتيجية الأميركية الحالية التي سنلقى عليها نظرة في مقالاتنا المقبلة. فبعد أن انتهت أميركا من الحلول عملياً مكان المستعمرين القدماء في أكثر مجالات النهـب والقرصـنة الاستعمارية في العالم وجهت استراتيجيتها إلى هدف أساسي هو حفظ "النظام" في العـالم النامي والعالم الرأسمالي بشكل عام، وذلك بالاستناد إلى ظرف عام يقـوم علـى تـوازن نووي بين القوى النووية الراهنة. وعلى هذا الأسـاس وسـع المـستعمرون الأميركـان وطوروا قوى التدخل لشن حروب "صغيرة" هنا وهناك في العالم، وهم يأملون في هذا أن لا يواجهوا عدداً كبيراً من هذه الحروب في آن واحد. فيكون الرد إذن على هذا المخطـط هو أن لا تستكين البلاد النامية لهذا الابتزاز، وأن تهب للمقاومة ولكيل الـصاع صـاعين بحيث لا تترك المجال لهؤلاء العدوانيين كي يضربوا في مكان، ويتقدموا في عـدد مـن الأمكنة الأخرى من العالم النامي مستغلين جو الإرهاب والفزع الذي يولدونه بضربتهم في المكان الأول.

ونقول بالاختصار أن علينا أن ننتبه إلى أن النضال العالمي لقوى التقـدم فـي الظـرف التاريخي الراهن له وجهان أساسيان متمايزان بين كل أوجهه الأخرى:

الأول: النضال في سبيل حماية مرحلة الانتقال من أن يجهـضها الاسـتعمار، والوقـوف بحزم ضد اندلاع حرب نووية هو بطبيعة الحال جزء من هذا النضال. وتقع هذه المهمـة أساسياً على عاتق المعسكر الاشتراكي مدعوماً بكل قوى التقدم في العالم.

الثاني: تمزيق شبكة الاستعمار العلمي بإذابتها هنا وهناك في البلاد الناميـة، وتقـع هـذه المهمة أساسياً على حركة التحرر الوطني مدعومة بكل قوى التقدم في العالم.

وبعد، فإننا نجد في النتيجة أن قوة التقدم، ككل قوة، لها عدد من أوجه النشاط، عدد مـن الأبعاد في الجملة الإنسانية، إلا أن هنالك وجهاً أو عدداً من الأوجه الأساسية بين كل تلك الأوجه : قوى التحرر الوطني مثلاً تنشط في الوقوف ضد إثارة الحرب النووية، وفي دعم بعضها البعض ودعم كل قضية تقدم في العالم، إلا أن نشاطها الأساسي يبقى على الـدوام تحرير بلادها من شبكة الاستعمار العالمي وتطوير اقتـصادها الـوطني. كمـا أن الـبلاد الاشتراكية تنشط في دعم نضال الشعوب النامية ومساعدتها وفي دعـم حركـات التقـدم الأخرى في العالم، إلا أن مهامها الأساسية هي أن تنشط في تطـوير اقتـصادها وقواهـا العسكرية، وأن تقف على رأس قوى التقدم في العـالم لـصيانة ظـروف التحـول إلـى الاشتراكية، وللمساعدة على تطوير ظروف التحول إلى الاشـتراكية، وللمـساعدة علـى تطوير هذه الظروف لمصلحة التقدم العامة. وهكذا يكون شأن كل قوة من قوى التقدم.

للبحث صلة...